# الصـــورة اللونيـــة في شعـــر اِبن خفاجـــة الأندلســـي

**د. بن منوفي محمد**
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات
جامعة الجزائر ( 2)

**abstract**

IBN KHAFFADJA El-Andaloussi was concerned with color Imagery more than any other poet of this time ,he used color images to express his
Feelings, he also displayed an awareness of the aesthetic importance
Of color imagery . The beauty of Andalousia's landscape ,the fertility
Of its lauds and moderate climate can tributed to this aesthetic sensibility about colors, however, he dealt with colors distinctly as he
Singled out black and white purposefully to reach out for his aesthetic
Objective. Indeed, he was a shrewd observer of the landscape and its colors to the exkut that he was called <the landscaper>,or was
after likened with El-sanaoubari

**Résumé**

Ibn Khaffadja El Andaloussie s'est intéressé à l'image colorée beaucoup plus que les autres poètes andalous, il l'a fonctionnalisée pour traduire ses sentiments et ses impressions, et il a appréhendé, avec sa profonde inspiration, tout ce que la couleur comporte de qualité esthétique et artistique. Et ce qui l'a énormément aidé, c'est cette beauté merveilleuse de l'Andalousie, particulièrement la productivité de sa terre et son climat tempéré et clément. Et compte tenu du fait qu'il ne s'implique pas de la même manière avec toutes les couleurs, préférant le noir et le blanc par rapport aux autres couleurs; ce choix des deux couleurs préférées qu'il utilisait favorisait ses aspirations et réalisait ses souhait.

Et malgré tout cela, il était un peintre doué et efficace de la nature, emmerveillé par ses multiples couleurs imprégnant son être total avec l'âme de la nature, au point où il fut parfois surnommé le poète du (Jardin d'Eden) et souvent de SANAOUBARI.

**ملخص:**

حياة الشاعر اِبن خفاجة: هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله الهـــواري الأندلســـي شـــاعر شـــرق الأندلس، ولد سنة 450هـــ وتوفِّي سنة 533هـــ، وكان مولده بجزيرة شقر من أعمال بلنسية وهي من أجمـــل الجـــزر الأندلسية، كان كاتباً مترسلاً وصّافاً للطبيعة شغوفاً بجمالها، مزج روحه بروحها وبادلها الشعور والإحساس حتى لقّبوه بالجنان ووصفه الشقندي بصنوبري الأندلس، أما المقرى في نفح الطيب فقال فيه:(هو شاعر الطبيعة الأكبـــر وأديـــب الأندلس وشاعرها).

**المقـــــال:**

اِهتمّ الدارسون بعلم البلاغة بالصورة من حيث هي اِستعارة أو تشبيه أو كناية، ولكنهم لم يولّوا الصورة اللونيـــة عناية كبيرة، بل لعلّهم عبّروا عن إعجابهم بلون معين دون آخر، ومن غير إظهار للشعور والعواطف والأحاسيس، ذلك لأن الألوان عندهم هي ضرب من الزركشة والتجميل، وظلّ الشعراء على هذا النمط التصويري إلى أن جاء العصـــر العباسي فتهافَتُوا على الطبيعة آخذين من جمالها بما يملأ العين جمالاً والقلب إنشراحاً والفن تجديداً واِبتكاراً، ولم يشُـــذ شعراء الأندلس عن أقرانهم العباسيين حينما أقبلوا على الطبيعة مصوّرين شاعرين بجمالية المكان والزمـــان جـــاعلين منهما ذاتاً حيّة تؤثر وتتأثر، وكان من الذين أدركوا هذه الحقيقة الشاعر الأندلسي اِبن خفاجه فقال:[1]

**أن للجنّة في الأندلس ** مجتلى حُسْن وريّا نفس**

وقال أيضاً:

**ماجنة الخلد إلاّ في دياركم ** ولو خيرت بين هذا ما كنت أختار**

وإذا كان موضوعُنا يهتمّ بالصورة اللونية عند هذا الشاعر فذلك راجع للعناية الهامّة التي أولاها لهذا النوع مـــن الصور محاولاً إبراز خياله وأحاسيسه ومشاعره، فعبّر عن المكان كجزء من كيانه وذاته، وعبّر عن الزمـــان كوعـــاء لأفكاره وأخييلته، إنه إحساس جديد يتحرك بداخله يجعله ينصهر بِذات الأرض الأندلسية يستنطق أشجارها وأزهارهـــا بجميع أصباغها وألوانها يأخذ منها بما ترتضيه نفسه ويستجيب لمتطلبات شعوره وعاطفته، لقد بذل اِبـــن خفاجـــة كـــل طاقته كي يخلق من اللون صورة حيّة ناطقة بِهوى النفس معبِّرة عن كوامنها أو صامتة عاجزة عن حلّ عقدها أو إدراك غاياتها، والمهم في كل ذلك أنه منح الصورة اللونية طاقة فنّية جعلتها من أغنى الصور التي لا تزال في حاجـــة إلـــى دراسة وتحليل.

ومن خلال تتبُّعنا لديوان اِبن خفاجة وجدناه شديد الاهتمام باللون الأسود رغم أنه ولد في أجمـــل جزيـــرة مـــن جزائر الأندلس (جزيرة شقر)، فقد اِحتلت الصورة السوداء المكانة الهامة تليها البيضاء فالخضراء والحمراء، وبنســـبةٍ أقل الزرقاء والصفراء ثم اللونين الفضي والبنفسجي.

1) **<u>اللون الأســـــود</u>:**

جاء ذكره في القرآن الكريم (07) مرات ومنه قوله تعالى:" فأمّا الذين اِسودّت وجوههم"، وفي نفس السورة قوله تعالى:" يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ "[2].

وفي سورة الزمر:" ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة "[3].

أمّا في الحديث الشريف فقد تجاوز ذكراللون الأسود (100) حقيقة ومجازاً نذكر منها مثلاً قوله (صلعم):" أعوذ بك من أسد وأسود "، وهي أحاديث كثيرة تُنفِّر من السّواد ولباسه ورغم ما يحمله اللون الأســـود مـــن دلالات نفســـية واِجتماعية وفكرية إلاّ أن اِبن خفاجة قد تعلق به حتى وهو في شبابه لاهياً ومتردّداً على مجـــالس الخمـــر والمجـــون، وحيث كل شيء يدعو إلى الزهو والمجون لكنه لا يفارق بصره وفكره لما وجد فيه من اِنسجام وتوافق مع هواه، ولذلك رأى بعض علماء النفس (أنه من يختار الأسود في المركز الأول يريد أن يتخلى عن كل شيء ناتج عن معارضـــة أو ضد لحالته الحاضرة التي يشعر فيها بأنه لا شيء ويجب أن يظل كما هو،إنه في ثورة ضد القدر أو ضد حظّه، ولـــذا يتصرف بدون حكمة في ثورته)[4].

وإذا هو يصف مجلس أنس فيقول:[5]

**رضَعْنا لها أمُّ المَدامِ عشيَّةً ** ويا عجَبا ما للرِّضاعةِ والكهْلِ**
**واسْوَدّ معْسولُ المَجَاج لو أنَّه ** لمى شفةٍ لم أرْوَ يوماً من القُبَلِ**
**حكى ليلة الهجر اِسْوداداً وإنَّهُ ** لأشهى وأندى من حتى ليلة الوصْلِ**

وعند اِبن خفاجة أن الحياة لا تحلو إلاّ بإقتران جمالين، جمال النفس وجمال الخلق والمظهر، ولذلك جاءت الصورة عنده مركبة من البياض والسواد، وإبرازاً لهذه المعاني والدلالات أنشد يقول:[6]

**وقبلــت الكــأس من يـــــده** فاِجتنيــت الورد من عنــم**
**وبياض العيـــش مُقتـــرن ** بِسَــواد العُــذر واللَّمـــم**

يرى علماء النفس أن للّون علاقة وطيدة بالمزاج البشري، ولذلك قالوا:" إن القصص السعيدة ترسم غالباً بألوان بهيجة، كالأصفر والوردي، والأزرق، في حين ترسم القصص الحزينة بالألوان الدافئة والغامضة، كالأحمر، البرتقــالي والأسود..."[7]

إن النظرة السوداوية للحياة جعلت اِبن خفاجة يُسْقط ما بداخله على الطبيعة فحوّل كل شيء فيها إلى ظلمة قاتمة، إنه إحساس قوي بغربة تلازمه منذ الصّبا،غربةممشوجة بثورة ضد المجتمع الشقري (نسبة إلى جزيرة شقر) الــذي لا يرى فيه إلاّ الخداع والمكر فاِعتزله متجهاً نحو الطبيعة يشكوها همومه ويبادلها أفكاره وخواطره، إنه شاعر كلاســيكي فيه روح رومانسية فيقول:[8]

**أبى البــرق أنيجِـــنَّ فـــؤاد** ويحمــل أجفان المحــبِّ سُهاد**
**وليــل كما مــدّ الغــراب جناحــه ** وسال على وجه السجــل مداد**
**به من وميض البرق والليل فحمه ** شــرار تــرامى والغمــام زناد**
**يقلــب مني العــزم إنسان مقلــة ** لها الأفق جفــنٌ والظلام سواد**

إن هذه الكثافة اللونية للأسود بلفظه أو بمعناه أوحَتا بصفة الغموض وعدم الثقة في النفس والريبة من كل شيء (يقلب مني العزم ، الظلام سواد ، يجنُّ فؤاد ، الغراب).

ومثلما يمنح الأسود سكوناً وخمولاً فقد يكون أيضاً مدعاة للمغامرة وفيه صورة من القيمة الاجتماعيــة، وذلــك حينما يفضل الشاعر زيارة حيِّه ومحبوبته في الظلام الدامس، يقول:[9]

**وخُضتُ ظلام الليل بِسُود فحمــة ** ودُسْتُ عَرين الليث ينظر عن جمر**
**وجئت ديّار الحي والليل مطــرق ** مُنمْنَم ثــوب الأفق بالأنجم الزهــر**

إنه يحبُّ المغامرة التي تخلق منه بطلاً، لذلك فضّل المسالك الوعرة المحفوفة بالخطر حتى يصل إلى حيّه وحيث محبوبته، إنها صورة تتكرر كثيراً في شعره لأن فيها دعامة لمعنوياته وتأكيداً لإثبات ذاته، ولذلك قيل (إن فــي اللــون قوة، إنه ينشط أو يهدّئ ويثير أو يسكّن يُولّد الإحساس بالشغف ويرفع المعنويات....)[10]، وقد يكون اِبن خفاجــة قــد وجدتلك الصفات في اللون الأسود.

وتحضره كذلك صورة الراهب الذي لبس المجرّ السوداء وهي صورة ذات منبع ديني تعبّر عن التنوع العقيدي في الأندلس، إذ لا يرى الشاعر ضيراً أن يستلهم صورته الدينية من هذا الموقف سواءً كان مسيحياً أو يهودياً.[1]

**لبس المجرّ على السواد فخلته ** متـرهباً قـد شـدّ من زنّار**
**ووراء أستار الدُّجى متكامـل ** يُلقـي بيمنـى تارة ويسـار**

إنّ اللّون جزء من العالم المحيط بنا وهو يلازمنا في كل حياتنا، بل يدخل في مكونات طبيعتنا وأمزجتنا لكننا لا نتعامل مع الألوان أحياناً إلاّ بالقدر الذي يستجيب ورغباتنا النفسية والاجتماعية والفكرية. ومن هنا كان الشاعر ميّالاً إلى الصور اللونية التي لا تخلو من متناقضات كما وصف اِبن خفاجة الشمس المطلّة بطرف كحيل وبقايا سناها كقطرات دم من سيف صقيل فيقول:[2]

**وقد ولّت الشمس محتشمـةً ** إلى الغروب ترنو بطرف كحيل**
**كـأن سناها علـى نهـره ** بقايا نجيـعٍ بسيـفٍ صقيـل**

وقد تتطور عنده النظرة السوداوية فيُسقط ما بداخله على الطبيعة، فإذا هي تشاركه الأحزان بما فيها من متحرّك وساكن أو كأنه يفهم لغتها فيُناجيها في ظلام الليل، وكذا الحمامة باكية حزينة لحزنه، إنها قمّة الحُلولية في الذات الأخرى فيقول:[3]

**أناجي ظلام الليـل فيه بلوعـة ** تحدث عنها الطير فجراً فهَيْنما**
**وأسحـب أذيال الدجى فيهيجُني ** حمام تداعـى سِحـره فتكلَّما**

وتارةً يوظف الشاعر إلى جانب اللون الأسود اللون الأبيض رغم ما بينهما من تناقض لكنه يرى دوماً سيطرة السواد على سائر الألوان، أولكأنّه هو المصدر، ورغم ذلك فهو يرجو خلق التوازن والانسجام داخل ذاته، لأن توظيف الأبيض في المرتبة الثانية بعد الأسود قد يكون رغبة في طلب السعادة أو الثورة على التعاسة وطلباً للفرجة، ومنه قيل " أن اللون قد يستخدم أحياناً للتواصل مع كيانك برُمَّته الجسدي والعاطفي والعقلي والنفسي...."[4]

وأحياناً لا يعبِّر الشاعر عن الأسود صراحةً وإنّما يشير إليه بما يدلّ عليه ولكنّه لا يخلُو من مسحةٍ عاطفية وشعورية تجاه الممدوح[5].

**من أسرة نشأوا عمائم أزمـة ** ولربّما طلعوا بُدُور حنادس***

إنّ الشاعر لا يهمّه من الصورة مطابقتها للواقع من عدمه بل المهم أن تصوّر واقعه النفسي والفني كما يراه، لذلك أسقط الصورة السوداوية على ورد الخيري الذي هو منبع البهاء والسرور، وبذلك يشذُّ عن أقرانه من شعراء الأندلس الذين لا يرون في الطبيعة الأندلسية إلاّ السرور والبهجة، إنّه يحبّ التميُّز والشذوذ الإبداعي حتى يقال أنه اِبن خفاجة[6]

**يدبُّ مع الإمساء حتى كأنما ** له خلف أستار الظلام حبيب.**

2) **<u>اللون الأبيـــض</u>**:

ويأتي الأبيض في الدرجة الثانية بعد الأسود، وهو لون مُحبّب إلى قلوب الناس، وقد كان مقدّساً منذ العصور القديمة عند اليونان، ويرمز إلى الإله (Jupiter) كما يرمز إلى الصفاء والنقاوة، وعند المسيحيين يمثل السيد المسيح بالثوب الأبيض، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم أكثر من (11) مرة بمعناه الحقيقي والمجازي.

قال تعالى:" **وأمّا الذين اِبيضّت وجوهُهم ففي رحمة الله هم فيها خالدون**"،[17]
وقوله تعالى:" **يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ** "[18].

وفي الحديث الشريف وردت لفظة الأبيض بما يقارب (100) مرة بما تحمله من دلالة مختلفة (حقيقة أو مجازية)، وكان عليه السلام يحبّ اللون الأبيض ويحثُّ على لباسه حيث قال:" **اِلبسوا من ثيابكم البِيض**"، وقال أيضاً:
" **إن حوضي لَهُوَ أشدُّ بياضاً من الثلج**".

وأثبتت الدراسات الحديثة للألوان أن اللون الأبيض هو سيد الألوان (أمّا اللون الأبيض فهو كما يقال "**سيّد الألوان**" كونه يضمّ كافة ألوان الطيف والألوان الأساسية، وهو محايد يوحي بالطهارة والنظافة والطّيبة حتى قال العامة " فلان قلبه أبيض"[19].

غير أنّ شاعرنا لا يذكر الأبيض إلاّ وهو مقرون بالأسود وغيره من الألوان الأخرى أو لكأنّي به لا يستطيع رسم الصور البيضاء مستقلة، وهذا نمط فنّي عُرف من قبل عند شعراء العباسيين الذين كان شعارهم الأسود، يقول أبو تمام مادحاً:

**رجل بدا فملأ المشارق نوره ** متهللاكالجُونة البيضاء**

ويقول اِبن خفاجة:[20]**والصُّبح قد صدع الظلام كأنه ** وجهٌ وضيءٌ شفَّ عنه قِناع**

غير أنّ هذه الصورة للّون الأبيض لا تلبث أن تستقل عن غيرها وتعود إلى طبيعتها الأصلية فتعبِّر عمّا يجيش في النفس من حبٍّ الحياة والتمتع بجمالها وفي صورة تبرز الحركية الضدّية الناتجة عن صراع الألوان (الأبيض والأسود).

وهي في الحقيقة صور كامنة في اللاّشعور تجسِّدها الأحاسيس والمشاعر فتُفرَغ في صورة فنّية أو نفسية لا تخلو من لحظة الصرّاع الذي يعيشه الشاعر فيجسِّده في صورته الشعرية حيث يقول: [21]

**والصُّبح قد مزّق عن فجره ** جيب الظلام كان مزْرورا**

وأحياناً ينفُض الشاعر عنه غطاء السواد ليعيش في عالم كلُّه ضياء ونور، أو قل هي اللحظة التي يعود فيها إلى محيطه الأندلسي الطبيعي الجميل والمليء بالألوان الزاهية، فيصدَح بشعرٍ كلُّه حقيقة غير مُكنّى عمّا تراه عينه أو يتلقّفُه خياله إنها لحظة الإنبِجاس الإبداعي يقول:[22]

**والصُّبح أبْهى في العيون من الدُّجى ** وأعمُّ إشراقاً وأبهَج منظرا**

إنّ الشاعر بِحُكم طبيعته النفسية المتقلّبة والمتشائمة من السهل عليه أن يتصرف في الألوان كما يشاء ويجعلها خاضعة لذاته ومُلبِّية لرغباته الآنية، إنّه يحبُّ أن يُبدع إبداعاً خاصاً أو يخلق جمالية تميّزه عن غيره من شعراء الأندلس فصوّر حزنه لفُقدان اِبن أخيه بهذه الصورة[23].

**وألق بياض الصبح بِسُود وحْشِه ** فأحسبُني أمسي على حين أصبح**

كما أنّ اللون الأبيض قد لا يردُ بلفظه وإنّما بمعناه فيأخذ دلالة أخرى، قد تكون في أصلها عائدة للسواد، ولذلك صوّر الخمرة كالعجوز وقد اِكتسى رأسها شيباً ناظراً إليها عندما كانت في شبابها فقال[24]

**جلاها وقد غنى الحمام عشية **عجوزاً عليها للخباب مشيب**
**وجاء بها حمراء أمّا زجاجها ** فماء وأمّا ملــؤها فلهيــب**

إنّالمِراس الفنّي الذي تعوَّد عليه اِبن خفاجة في التعامل مع اللون الأسود جعل حركته بطيئة حينما يحاول الانتقال إلى الأبيض، أي أنّ خياله لا يُسْعفه في جمع أشتاتصورته اللونية فتأتي باهتةً لا ترقى إلى ما عهدناه عنده من الصــور الجميلة وخاصةً إذا كان المنظر ممّا تعوّد عليه كوصف النهر[25].

**ونهر كما اِبيضّ المَقيل سلسلا ** وجذعاً كما اِخضرّ العذار خضيبا**

وفي اِعتقادي أنّ حرص الشاعر على الجمع بين اللونين (الأبيض والأسود) جعلاه لا يولّي اِهتمامــاً لواقعيــة اللون ومدى مطابقته للصورة التي وظّف من أجلها ومن ذلك وصفه لمجلس أنس ولهو[26].

**ونـــدى أنــس هزَّنــي ** هــزّ الشــراب من الشباب**
**والليــل وضّاح الجبيــن ** قصيـــر أذيــال الثيــاب**
**فقتصْتُ منــه حمامـــة ** بيضاء تسنَح من غُــراب**

3) **أمّا الصورة الخضــراء:**

فتأتي في المرتبة الثالثة، إلاّ أنه لم يوظّفها بالقدر الذي يرتجى من شاعر أندلسي عاش في بلد كلهــا خضــراء وخاصةً أنه اِبن أجمل جزيرة أندلسية (جزيرة شقر)، لكنه لا يستطيع الإفلات من طبيعة بلده وما كان يعتقد عندهم (أن اللون لونان: الأبيض والأسود، فقط ولذلك أسقطوا الأخضر لأن الخضرة عند العرب هي السواد...)[27].

غير أنّ هذا الاعتقاد لا يمكن الاطمئنان إليه إذا عرفنا ثقافة الشاعر الاسلامية، وكيف كان المسلمون ينظــرون إلى هذا اللون، خاصةً وأنّ القرآن الكريم ذكره في العديد من سورة، ففي سورة الرحمان قوله:" مُتكئين علــى رفــرفٍ خُضرٍ وعبقريٍّ حسان"[28].

وفي آية أخرى قال تعالى:" عاليهُم ثياب سندسٍ خضرٍ واِستبرق وحلوا أساور من فضةٍ وسقاهم ربّهــم شــراباً طهُورا "[29].

ورغم أنّ الشاعر قد وظّف اللون الأخضر (08) مرات منها (06) ستة بلفظه و(02) بمعنــاه، إلاّ أن الحسِّــية التصويرية طغت على الصورة المعنوية وهي عودة منه إلى أحضان الطبيعة آخذاً منها بالقدر الــذي يهــذّب صــورته ويذهب عنه آلامه وحزنه، إنّه: يحبُّ المناظر الخضراء وخاصةًإذا كانت بجوار نهر شقر مسقط رأسه[30]

**متعطــف مثل الســوار كأنــه ** والزهــر يكنفه مجــرّ سماء**
**قد رقّ حتى ظنّ قوساً مفــرغا ** من فضّــة في بردة خضراء**
**وغدت تحفُّ به الغُصون كأنّها** هُــدب تحــفُّ بمُقلــة زرقاء**

ثم يلتفت من حوله إلى شجرة جميلة بقرب الوادي فيتعزل بروعة وجمالها الأخّاذ وما أبدعه الله فيها من حســن الصنعة وبراعة التشكيل فيقول:[31]

**ومائسة تزهى وقد خلع الحيا عليها ** حُلٌّ حُمْــراً وأرديـــة خضــرا**
**يــذوب لها ريــق الحمامــة فضّة ** ويجمد في إعطافها ذهباً نضــرا**

لقد توصّل علماء النفس إلى أنّ اللون (الذي يبعث السرور والبهجة وحب الحياة هو اللون الأخضر)، وقد يصدق ذلك على وصف الشباب بالريّان الأخضر فيقول:[32]

**وتملّكتــه هــزّةٌ في عـــزّة ** فارِتجَّ في ورق الشباب الأخضــر**

ويُقال أنّ من دلالات اللون الأخضر من الناحية العاطفية، أنّ صاحبه (إنعزالي وشديد التحفّظ والحذر والحــزن، وربّما فكر بأن العالم غير عادل أو منصف، وأنّ الحياة مجموعة مــن الحقــائق المــرّة، أو تصــور نفســه ضــحية المجتمع)[33]، إنها صفات وجدت كلها في شخص الشاعر فعُرف بإنعزاله عن مجتمعه وسخطه الشديد على ذوي الجاه وخاصةً أهل الدين ورفض الزواجظناً منه أن كل مشاكله سببها المجتمع.

فإنطوى وإنزوى ومال إلى التصوُّف والزُّهد وكانت أخريات حياته كلها توسُّل ودُعاء إلى الله تعالى فقال:[34]

**ورفعت كفّي بين طرف خاشــع ** تنـــدى مآقيــه وبيــن دعــاء**
**وبسطت في الغبراء خدّي ذلّــة ** أستنزل الرحمان من الخضــراء**

وقد عُرف اللون الأخضر عند قدماء الفراعنة بأنه اللون (المحرّر للنفوس والموجه للشعور نحو الحياة الأبدية)، ولعلّ إبن خفاجة لم يدرك هذه الحقيقة إلاّ وهو شيخ طاعن في السِّن.

4) **<u>أمّا اللون الأحمـــــر</u>:**

فجاء في المرتبة الرابعة وأغلب صورة كانت حسِّية، ويرى علماء النفس أن هذا اللون قد يكون مدعاة إلى طلب (اللّذة وإستمرارها وربّما كان له علاقة بالحياة الأروستقراطية، كما أنّ الألوان الدافئة والغامقة، كــالأحمر والبرتقــالي والأسود تدفع إلى الحزن...)[35].

وإذا أخذنا بمفهوم اللّذة والإستمرار في طلبها فإن الشاعر يحبُّ هذا النوع من الملذّات وحيثما وجــدها طلبهــا إن كانت في الطبيعة الحسّية أو الحياة العادية، يقول واصفاً الخمرة وجمال لونها:[36]

**ندى النسيم فما أرقّوأعطرا ** وهفا القضيب فما أغضَّ وأنْضرا**
**فــزفَفْتُها بكـــــراً إذا قبلتها ** ألقتْ على وجهي قناعاً أحمــرا**

وفي موضوع آخر يقدم اللون الأحمر ثم يشير إليه بمعناه في آخر البيت قائلاً:[37]

**وجاء بها حمــراء أمّا زجاجها ** فماء وأمّا ملــؤها فلهيــب**

وإبن خفاجة فوق كل ذلك فنّان ماهر يُحسن التصرُّف في الألوان وإخضاعها لرغباته، وإذا اللون حسّي يحمــل دلالة معنوية حينما يجعل من الطبيعة ذاتاً تحسن وتشعر بل وتبكي بدموع حمراء، إنه إحساس قــوي بــالحزن والألــم إشترك فيه الإنسان والجماد فقال راثياً:[38]

**في مثلــه من طارق الأرزاء ** جاء الجماد بِعبْــرة حمــراء**

وعلى الرغم من كثرة اللون الأحمر وإنتشاره في الأندلس وخاصةً الحدائق، إلاّ أن الشاعرلم يستغلّه أحسن إســتغلال أو لعلّه لم يستجيب لهوى نفسه إذ هو (لون اللطافة والحيويــة ويتمتــع أصــحابه بالديناميكيــة والشــجاعة والحساســية الشديدة....)[39]

5) **أمّا اللون الأزرق**

فيأتي في المرتبة الخمسة، فهذا اللون عند علماء النفس يرمز إلى المعاني المطلقة والتشبُّث بالحياة، لكنّ الشاعر لم يحمله أية دلالات وإكتفى بنقله كما هو في الطبيعة.

يقول واصفاً ثماراً متنوعةً:[40]

**يضاحكها ثغر من الشمس واضح ** ويلحظها طرف من الماء أزرق**
**وتجلّـى بها للماء والنار صـورة ** تروق فطرفي حين يغرَق يُحرَق**

ونادراً ما يجمع اِبن خفاجة في صورته بين ألوان مختلفة كما هي في واقع الطبيعـة الأندلسـية الجميلـة، لأن طبيعته النفسية تميل إلى ألوان معينة أكثر من غيرها (الأبيض والأسود)، بالدرجة الأولى والبقية تابعة لهما وفي هـذه الفُسيفُساء الجميلة جمع بين ألوان شتّى على غير عادته فقال:[41]

**والفجـر ينظر من وراء غمامة ** عن مقلـة كحلت بها زرقاء**
**فرغبْتُ عن نور الصباح لزورة ** أغرى لها بنفسـج الظلماء**

كما أن اللون الأزرق يشترك بين الإنسان والطبيعة، ولكن هذه الصورة قد لا توجد إلاّ في بلاد الأندلس، حيـث اِختلطت الأجناس ببعضها وهذا ملمح اِجتماعي اِستشعره وهو يُمتِّع نظره في وصف نهر شقر مسقط رأسه فقال:[42]

**قد رقّ حتى ظـن قوساً مفرغاً ** من فضـة في بردة خضراء**
**وغدت تحفُّ به الغصـون كأنها ** هُـدب تحف بمقلـة زرقاء**

واِبن خفاجة يحب الفسحة والتجوال كما يحبُّ العزلة والتأمل، ولعلّها لحظات يستمتع فيها بجمالية المكان فيتتبّـع أجزاءه وأقسامه واصفاً اِخضراره وزرقته فقال:[43]

**وقسمت طرف العين بين رباوة ** مخضـرّة وقـرارة زرقاء**

6) **وفي المرتبة السادسة:**

يأتي اللون الأصفر، وهو من الألوان التي ذكرت في القرآن الكريم وخاصةً في حوار موسى مع بني إسـرائيل، قال تعالى:" **قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقعٌ لونها تسرُّ الناظرين**".

وفي سورة الزمر يقول تعالى:" **ثم يهيج فتراه مُصفرّا ثم يجعله حطاماً إنّ في ذلك لذكرى لأولي الألباب**"[44].

ويرى علماء النفس أن اللون الأصفر وخاصةً الفاتح منه (يثير الغيرة والتنافس في النفوس _لأن لـون الـذهب أصفر_..)، (وتشير الدراسات التاريخية أن اللون الأصفر كان محتكراً لدى أباطرة الصين واليابان، كونه لون الـذهب وشروق الشمس، ولذلك اِعتبروه لون الحكمة وأصحابه مثاليون متفائلون سعداء، ويمتاز صاحبه بالحيوية والقدرة علـى الإبداع[45]، ومن خلال توظيف الشاعر لهذا اللون يبدو أنه يملك قسطاً من القدرة على الإبداع والحيوية الفنية والفكرية لكنه لم يكن متفائلاً ولا سعيداً في أغلب حياته، ويوظّف الشاعر اللون الأصفر مقروناً بالأحمر لغاية جمالية نفسية لأنـه كثيراً ما يوجد الأصفر في موقع الأحمر كتعويض أو للبحث عن مخرج وقد بينت العبارات الموظفة في البيـت تلـك الحالة التي كان الشاعر يعيشها (قميص غيم مهلهل تمزّق، أصفرا) إنها توحي أن صاحبها يريد مخرجاً فخرج في نزهة مستمتعاً بجمال الطبيعة[46].

**فــزفَفْتُها بكـــــراً إذا قبلتها ** ألقت على وجهي قناعاً أحمرا**
**ورفلت بين قميص غيم مهلهل ** رداء شمس قد تمــزق أصفرا**

أمّا الفضّي والبنفسجي فلم يردا إلاّ قليلاً مقارنةً بغيرها من الألوان، الفضّي ورد بمعناه الحقيقي مرة وبلفظة مرة لكن البنفسجي لم يرد إلاّ مرة واحدة بلفظة.

غير أن الفضّي لم يحمل دلالات مختلفة بقدر ما جاء مُحدثاً الإثارة أو لشدّ الانتباه أو لإعطـــاء الصـــورة قـــوة وجاذبية، لذلك ذكره مقروناً باللون المذهّب يقول واصفاً جزع شجرة[47].

**فذهّب ليــل الســرى عارض ** يُفَضِّـــضُ بالمــاء ما ذهّبا**

وبالرغم من اِنتشار اللون البنفسجي وكثرته في البلاد الأندلسية إلاّ أن اِبن خفاجة لم يلتفت إليه كثيراً أو لعلّه لـــم يجد فيه ما يلبّي رغبته النفسية أو يحقق غايته الفنية، ثم إنّ علماء النفس يصنّفون أصـــحاب هـــذا اللـــون (بِضـــعاف الشخصية وقلة الإيمان بالقدرة على تحقيق الهدف)[48].

ويذهب بعض محلّلي النفس إلى أن أصحاب هذا اللون (البنفسجي) هـــم الـــذين يحبُّـــون أن يكونـــوا مختلفـــين والاختلاف سمة تطبع اِبن خفاجة في أغلب حالاته يقول:[49]

**والفجر ينظر من وراء غمامـــة ** عن مقلـــة كحلت بها زرقاء**
**فرغبت عن نور الصباح لزورة ** أغـــرى لها بنفســـج الظلماء**

والبنفسجي على قلّة تكراره إلاّ أنه " يرمز إلى المرارة ونقيض الحسّ، كما يدلُّ على صـــفة الأنانيـــة "، وهـــي صفات متوفرة كلها في شخصية اِبن خفاجة.

وسواءً حملت الألوان دلالةً نفسية أو فكرية واِجتماعية إلاّ أنّ اِبن خفاجة كان شـــغُوفاًبهذه الألوان،محبـــاً لتلـــك اللوحات المزركشة الجميلة التي تصور جمال الأندلس الأخّاذ والفتّان حتى قال فيه المقرِّي صاحب نفحَ الطّيـــب، (هـــو شاعر الطبيعة الأكبر وأديب الأندلس وشاعرها...).

**وهذا جدول بترتيب الألوان في ديوان اِبن خفاجة الأندلسي:**[50]

| رتبة اللون | لفظ اللون | تردّده بلفظه | تردّده بمعناه | المجموع |
|---|---|---|---|---|
| 01 | الأسود | 06 | 16 | 22 |
| 02 | الأبيض | 12 | 01 | 13 |
| 03 | الأخضر | 08 | 01 | 09 |
| 04 | الأحمر | 07 | × | 07 |
| 05 | الأزرق | 06 | × | 06 |
| 06 | الأصفر | 03 | 02 | 05 |
| 07 | الفضّي | 03 | × | 03 |
| 08 | البنفسجي | 01 | × | 01 |

[1]– اِبن خفاجة شاعر شرق الأندلس، د. حسن محمد نور الدين، مطبعة دار الكتب العلمي، بيروت، لبنان، ط/1، 1990، ص48.

[2]– الآية 60 من سورة آل عمران.

[3]– الآية 60 من سورة الزمر.

[4]– اللغة واللون، د. أحمد مختار عمر، مطبعة عالم الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط/2، 1997، ص196.

[5]– اِبن خفاجة شاعر شرق الأندلس،د. حسن محمد نور الدين، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، 1990، ص274.

[6]– اِبن خفاجة: المرجع نفسه، ص129.

[7]– ألوانك دليل شخصيك، فدوى حلمي مطبعة دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2007، ص6.

[8]– اِبن خفاجة الأندلسي عبد الرحمان جبر، مطبعة دار الأفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط/2، 1985، ص140.

[9]– اِبن خفاجة، حمدان حجيجي.

[10]– أسرار العلاج بالألوان، ترجمة، فاتن صبح، مطبعة دار الفراشة للطباعة والنشر ، بيروت، لبنان، 2007، ص11.

[11]– اِبن خفاجة، شاعر شرق الأندلس، د.حسن نور الدين، مرجع سابق، ص238.

[12]–اِبن خفاجة الأندلسي، عبد الرحمان جبر، مرجع سابق، ص42.

[13]– اِبن خفاجة، شاعر شرق الأندلس، مرجع سابق، ص146.

[14]– أسرار العلاج بالألوان، ترجمة/ فاتن صبح، مرجع سابق، ص11.

[15]– اِبن خفاجة، شاعر شرق الأندلس، مرجع سابق، ص114. * حنادس: واحدها حندس أي الظلام والسواد.

[16]– المرجع السابق، ص134.

[17]– الآية 107 من سورة آل عمران.

[18]– الآية 106 من سورة آل عمران.

[19]– ألوانك دليل شخصيتك، فدوى حلمي، مرجع سابق، ص9.

[20]– اِبن خفاجة شاعر الأندلس، مرجع سابق، ص245.

[21]– اِبن خفاجة شاعر الأندلس، د. حسن نور الدين، مرجع سابق، ص247.

[22]– المرجع السابق، ص245.

[23]– المرجع نفسه، ص255.

[24]– المرجع نفسه، ص163.

[25]– اِبن خفاجة الأندلسي، عبد الرحمان جبر، مرجع سابق، ص231.

[26]– اِبن خفاجة شاعر شرق الأندلس، ص162.

[27]– عاهد الماضي، ألفاظ الألوان في العربية، دراسة لغوية، مطبعة دمشق، سورية، دار الشام، ط1، 2001، ص25.

[28]– الآية 76 من سورة الرحمان.

[29]– الآية 21 من سورة الإنسان.

[30]– اِبن خفاجة الأندلسي، عبد الرحمان جبر، مرجع سابق، ص277.

[31]– اِبن خفاجة الأندلسي، المرجع نفسه، ص142.

[32]– المرجع السابق، ص97.

[33]– فدوى حلمي، ألوانك دليل شخصيتك، مرجع سابق، ص88.

[34]– اِبن خفاجة شاعر شرق الأندلس، مرجع سابق، ص86.

[35]– الألوان نظرياً وعملياً تعريب/ إبراهيم الدملخي، مطبعة حلب، سورية، ط1، 1983، ص81–82.

[36]– اِبن خفاجة الأندلسي عبد الرحمان جبر، مرجع سابق، ص143.

[37]– اِبن خفاجة شاعر شرق الأندلس، مرجع سابق، ص163.

[38]– المرجع نفسه، ص16.

[39]– فدوى حلمي، ألوانك دليل شخصيتك، مرجع سابق، ص10.

[40]– إبن خفاجة الأندلسي، عبد الرحمان جبر، مرجع سابق، ص272.

[41]– المرجع نفسه، ص247.

[42]– إبن خفاجة شاعر شرق الأندلس، مرجع سابق، ص37.

[43]– الآية 69 من سورة البقرة.

[44]– الآية 21 من سورة الزمر.

[45]– المرجع نفسه، 38.

[46]– إبن خفاجة الأندلسي، عبد الرحمان جبر، مرجع سابق، ص143.

[47]– المرجع نفسه، ص139.

[48]– فاتن صبح، أسرار العلاج بالألوان، مرجع سابق، ثص38.

[49]– إبن خفاجة شاعر شرق الأندلس، د.حسن محمد نور الدين، مرجع سابق، ص277.

[50]– ديوان إبن خفاجة أبو إسحاق إبراهيم، بيروت، لبنان، مطبعة دار صادر، د.ط، 1961م.